سؤال

المحكم والمتشابه

لماذا وردت الآيات المتشابهة في القرآن الكريم

إعداد
أحمد حسين الأزهري

ع | مطوية رقم (٦) | مسلسل رقم (١٤١) ٢٠١٩

مُبادرات طابة
TABAH INITIATIVES

لماذا وردت الآيات المتشابهة في القرآن الكريم؟

ربنا سبحانه وتعالى وصف القرآن بأنه كتاب هداية وبيان فقال جلَّ وعز: هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ الحديد ⑨ ، فلماذا وردت فيه آيات متشابهة المعنى؟

هل تعلم؟!

لعل أول مَن طرح هذا السؤال في كتب التفاسير وعلوم القرآن الإمام أبو الليث السمرقندي المتوفى سنة (373 هـ) في تفسيره بحر العلوم فقال: «فإن قيل: إذا أنزل القرآن للبيان، فكيف لم يجعل كله واضحاً؟ قيل: الحكمة في ذلك ((والله أعلم)) أن يظهر فضل العلماء، لأنه لو كان الكل واضحًا لم يظهر فضل العلماء بعضهم على بعض. وهكذا يفعل كل من يصنف تصنيفًا يجعل بعضه واضحًا وبعضه مشكلًا، ويترك للحيرة موضعًا، لأن ما هان وجوده قل بهاؤه».

الحكم على الشيء فرع عن تصوره

إذا أردنا أن نفهم الحكمة من ورود الآيات المتشابهة في القرآن الكريم، علينا أولًا أن ندرك معنى المحكم والمتشابه في اللغة، وثانيًا أن ندرك معنى المحكم والمتشابه في القرآن العزيز، لأن الحكم عن الشيء فرع عن تصوره، وعلى قدر قوة ودقة التصور، تكون قوة ودقة الحكم.

المحكم في اللغة:

العرب تقول حاكَمْتُ وحكَّمت وأحكمت بمعنى رددتُ ومنعتُ. فالرئيس أو الأمير أو الخليفة يسمَّى حاكمًا لأنه يمنع الظالم عن ظلمه، وقول جرير: «أحكموا سفهاءَكم»، أي: امنعوهم، ويقال: بناءٌ محكم أي وثيق يمنع مَن تعرَّض له، والحكمة سُمِّيت بذلك لأنها تمنع عمَّا لا ينبغي.

المتشابه في اللغة:

التشابه هو أن يكون أحد الشيئين مشابهًا للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز بينهما، كما في قوله تعالى على لسان بني إسرائيل: إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا البقرة ⑦⓪

ويقال: اشتبه عليَّ الأمران إذا لم يفرَّق بينهما، كما في الحديث النبوي الشريف: الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ وبينهما أمور متشابهاتٌ. فلمَّا كان من شأن الشيئين المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما سُمِّي كل ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه.

المحكم والمتشابه في القرآن العظيم

القرآن كله محكم:

الله عز وجل أخبرنا في كتابه العزيز أنه كله محكم كما في قوله سبحانه:

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ يونس ①

، وقوله تعالى: الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ هود ①

والمعنى أن كلام القرآن حق، أي: ألفاظه فصيحة ومعانيه صحيحة، وكل قول وكلام يوجد فالقرآن الكريم أفصح منه لفظًا وأقوى منه معنىً، ولا يتمكن أحد من الإتيان بكلام يساوي أو يداني القرآن في هذين الوصفين.

القرآن كله متشابه:

والله سبحانه أخبرنا أيضًا في القرآن الكريم أنه كله متشابه، كما في قوله عز وجل:

كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ الزمر ㉓ والمعنى: أنه يشبه بعضه بعضًا، ويصدِّق بعضه بعضًا، وهو ما دل عليه قوله تبارك وتعالى:

وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا

النساء ㉘ ، يعني: لكان بعضه واردًا على نقيض الآخر، ولتفاوت نسق كلامه في الفصاحة والركاكة.

القرآن منه المحكم ومنه المتشابه:

وهناك معنى ثالث للمحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وهو الذي من أجله ورد سؤال: إذا كان القرآن

الكريم كتاب هداية وبيان، فكيف لم يجعل كله واضحًا ولماذا اشتمل على آيات متشابهة المعنى؟

وهذا السؤال يشير إلى قوله تعالى: هُوَ

ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ آل عمران ⑦

ما معنى أن يكون القرآن منه آيات محكمة ومنه آيات متشابهة؟

لكي نفهم معنى المحكم والمتشابه في هذه الآية لا بد أن نستحضر صور دلالة الألفاظ على المعاني عند العرب، فإننا لو تأملنا اللغة العربية وتدبرنا أحوال دلالة اللفظ على المعنى لوجدنا أننا أمام مجموعة محدودة من الاحتمالات ومنحصرة في قسمين:

القسم الأول:

أن يدل اللفظ على معنى واحد فقط لا غير. واللفظ يسمى في هذه الحالة بـ((النص)).

ومثال ذلك قوله تعالى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ فإن قوله تعالى: وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ لا يحتمل إلا معنىً واحدًا وهو لحم الحيوان المسمى بالخنزير.

القسم الثاني:

أن يدل اللفظ على معاني متعددة، يعني أن يحتمل اللفظ أكثر من معنى، وفي هذه الحالة إما أن يكون أحد المعاني أوضح من المعنى الآخر، وإما أن تكون المعاني كلها متساوية في والوضوح والظهور.

ففي الحالة الأولى، وهي أن يكون أحد المعنيين أرجح من الآخر في أصل اللغة، يسمى اللفظ بالنسبة إلى المعنى الأوضح: «الظاهر»، ويسمى بالنسبة إلى المعنى الأقل وضوحًا: «المؤوَّل».

ومثال الظاهر قوله تـعـالى: لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى طه ﴿52﴾ فإن لفظ النسيان يطلق على معنيين، أحدهما فقدان العلم وزواله وهو المعنى الأرجح في اللغة، وثانيهما الترك وهو المعنى المرجوح، والمعنى المراد في الآية الأول، لأن قوله تعالى: وَلَا يَنسَى أي: لا يزول علمه سبحانه وتعالى، وليس معناها: لا يترك.

وأما مثال المؤوَّل فقوله تـعـالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ التوبة ﴿67﴾ . فإن قوله تعالى: {فَنَسِيَهُمْ} لا يجوز أن يحمل على المعنى الراجح للنسيان في اللغة وهو زوال العلم، لأنه لا يجـــوز في حق الباري جل وعلا، وإنما يكون المراد هو المعنى المرجوح للفظ النسيان، وهو الترك، فقوله تعالى: فَنَسِيَهُمْ أي: فتركهم.

وعليه فإن هذه الآية متشابهة والتي تسبقها محكمة، والواجب أبدًا في فهم الآيات المتشابهة في ضوء الآيات المحكمة، فإن الآيات المتشابهة فروع والمحكمة أصولها.

والحالة الثانية، وهي حالة الاشتراك التي تتساوى فيها المعاني من حيث دلالة اللفظ عليها، يسمَّى اللفظ بالنسبة إلى كل معنى على التعيين بـ«المجمل».

ومثاله قوله تعالى: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ البقرة ﴿228﴾ فإن معنى «القُرء» يطلق بالاشتراك على الطهر وعلى الحيض، يجوز في اللغة أن يطلق على أيهما، وليس أحد المعنيين أرجح من الآخر، والمطلوب في هذه الحالة ترجيح أحدهما.

فيتلخص لنا مما سبق

أن المقصود من المحكم الوارد في قوله تعالى: مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ما يسمى في اصطلاح العلماء بـ«النص» وما يسمى بـ«الظاهر»، وأن المقصود من المتشابه الوارد في قوله تعـالى: وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ما يسمـى في اصطلاح العلمـــاء بـ«المؤول» وما يسمى بـ«المجمل».

معاني أخرى للمتشابه:

ومن المعاني الأخرى التي ذكرها العلماء في بيان المراد من المتشابهات في القرآن العزيز:

- الحروف المقطعة التي في أوائل السور، ومنهم من جعلها هي المتشابه لا غير.
- أحوال الآخرة وأهوال القيامة ونعيم الجنة وعذاب النار ونحو ذلك.
- الآيات المنسوخة.

ما الحكمة من ورود المتشابه في القرآن الكريم؟

بعد أن بيَّنا الفرق بين المحكم والمتشابه نذكر الآن الحكمة من ورود المتشابه والفوائد المترتبة عليه.

أولاً : ورود المتشابه يعود إلى طبيعة اللغة، فإن اللغة العربية وسائر اللغات محكومة بالزمان والمكان، وعقل الإنسان الذي به يتعقَّل الإنسان معاني الألفاظ هو أيضًا محكوم بالزمان والمكان، فجاءت الأمثال والألفاظ المجازية لتقريب هذه المعاني إلى الأذهان. وأيضًا إذا كان اللفظ المؤول أبلغ ووقعه في النفوس أشد فإن مقتضى البلاغة تقديم استعماله على اللفظ الظاهر.

ثانياً : الآيات المتشابهة باب من أبواب عظيم الثواب وجزيل العطاء، لأن الآيات المتشابهة إدراك معانيها يحتاج إلى بحث وتأمل، ونظر وتدبر، وأعمال العقل تستغرق وقتًا وجهدًا، وتستلزم استحضار الآية في العقل وملاحظة معانيها مرةً بعد أخرى، وهذه كلها أسباب لزيادة الثواب.

ثالثاً : الله سبحانه وتعالى دعانا إلى تأمل كتابه المنظور، وهو الكون، كما في قوله تعالى:

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ العنكبوت ﴿٢٠﴾

وهذه دعوة بلسان المقال، أي دعانا بكلام القرآن الكريم، وأيضًا دعانا إلى تأمل الكون بما فيه من المشاهد المبهرة والمناظر المدهشة، وهذه دعوة بلسان الحال، أي: أن حال الكون يدعو إلى تأمله وتدبره. وكذلك فإن الله تبارك وتعالى قد دعانا إلى تأمل كتابه المسطور، وهو القرآن العظيم، كما في قوله تعالى:

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ص ﴿29﴾

وفي قوله سبحانه: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ محمد ﴿24﴾

وهذه دعوة إلى تدبر القرآن بلسان المقال، ودعانا إلى تدبره أيضًا بما فيه من الآيات التي يتطلب فهمها إلى فكر ونظر، وهذه دعوة بلسان الحال، أي أن آيات القرآن العزيز تدعو بحالها الشريف إلى تأملها وتعقّل معانيها.

رابعاً : ورود المتشابه دعوة إلى الخروج عن ظلمة التقليد، لأن الآيات المتشابهة لا تفهم بذاتها، ويحتاج الإنسان من أجل فهمها أن يستعين بدليل العقل، وبالاستعانة بدليل العقل يتخلص الإنسان من التقليد الأعمى، والإيمان في الإسلام هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل.

خامساً : الله سبحانه وتعالى كلَّف الإنسان بتكاليف تحقيقًا لمقتضى العبودية له عز وجل، فمن هذه التكاليف ما يتعلق بالجوارح، ومنها ما يتعلق بالعقل. وتكاليف الجوارح أحيانًا تكون عبارة عن طلب فعل وأحيانًا أخرى تكون عبارة عن طلب ترك. وجاءت تكاليف العقل على نحو ما جاءت به تكاليف الجوارح، فكما طلب من العقل الإقدام والفعل يطلب منه أيضًا الإحجام والترك. فمثلًا من المتشابهات الآيات الواردة في صفات الباري سبحانه وتعالى، ومقتضى تكليف العقل فيها الوقوف عن محاولة الإحاطة بكنهها، وإن أدرك العقل آثارها ولوازمها.

سادساً : الآيات المتشابهة فتحت باب التعلم والتعليم وتوليد العلوم، لأن الواجب على المسلم في حق الآيات المتشابهة ألا يهجم على تفسيرها والجزم بمعانيها، بل ينظر ويتأمل إن كان من أهل الدراية والفهم،

أو يسأل أهل العلم في فهمها عملًا بقوله تعالى: فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ النحل ﴿43﴾ فبالآيـــات المتشابهة ظهر فضل العالم على غير العالم، وألفت كتب التفسير ودونت علوم اللغة والبلاغة. قال سبحانه وتعالى: وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ القلم ﴿37﴾

سابعاً: معرفة أهـل الـزيـغ لأجـل اجتنابهم واجتـنـاب مسلكهم، كما قـال تعالى: وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ الأنعام ﴿55﴾

فإن مِن أظهر علاماتهم جعل المحكم متشابهًا والمتشابه محكمًا، كما قال سبحانه:

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ آل عمران ﴿7﴾

فهذه بعض الحكم والفوائد المترتبة على ورود الآيات

المتشابهة في القرآن الكريم،

الحمد لله رب العالمين

Suaal.org
facebook.com/suaalorg
twitter.com/suaalorg
youtube.com/suaalorg
instagram.com/suaalorg

مؤسسة طابة
Tabah Foundation
www.tabahfoundation.org
مبادرة سؤال هي إحدى مبادرات مؤسسة طابة للأبحاث والاستشارات
دار الفقيه
DAR AL FAQIH